

الحياة الزوجية

(٥)

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ
بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقُرُونَ * (سورة الروم ٣٥-٢٠)

﴿الركن الثاني من أركان هذه الحياة - المودة﴾

تكلّمنا في المقالات الأربعة السابقة من هذا البحث عن الركن الأول من
أركان الحياة الزوجية وهو سكون كل من الزوجين إلى الآخر وبيننا أنه يتوقف
على حسن اختيار كل منهما للآخر وهذا الركن خاص بالزوجين عليه تبنى
سعادتهما وهناء معيشتهما وتحققه شرط لتحقيق الركنين الآخرين أو كليهما وهما
المودة والرحمة وتحقق الأركان الثلاثة تكمل فائدة هذه الحياة الفائدة التي أرشدنا
الله تعالى إلى طلبها منه بقوله في صفات المؤمنين «والذين يقولون ربنا هب لنا
من أزواجنا وذرياتنا قرّة أعين واجعلنا للمتقين إماماً» (الفرقان ٢٥-٧٤)

أما الركن الثاني وهو المودة فليس خاصاً بالزوجين لأن المودة تصل بين
عشيرتهما بما تصل به بينهما ولذلك لم يقل «تسكنوا إليها وتودوها» بل قال
«وجعل بينكم مودة» والخطاب للناس لا للأزواج خاصة أي أنه جعل من مقتضى
الفطرة البشرية التواد بينكم بسبب الزوجية بين الزوجين ومن يتصل بهما بلحمة
القرابة والنسب كما هو معروف بالاختبار فيمن سلمت فطرتهم من الفساد، وعرفوا
قيمة الحياة الاجتماعية فعاشوا عيشة الأجماع لا عيشة الأفراد، وما زال البشر يعدون
المصاهرة من أسباب العصبية بين البيوت والعشائر والقبائل بل نرى الأمراء
والملوك يحاولون بمصاهرة بعضهم بعضاً التواد والتناصر بين دولهم، أو تخفيف
العداء والتنافر بين أممهم، حتى أنهم يبنذون لذلك مذاهبهم الدينية كما فعلت
الاميرة الجرمانية التي تزوجها قيصر روسيا - فهذه سنة من سنن الفطرة عرفها
البدو والحضر وجرى عليها أدنى القبائل همجية وأعلى الشعوب مدنية، وتكبتها
أناس مذنبون كاد يخرج بهم فساد الفطرة عن البشرية،

ترى ونسمع في هؤلاء الذين خلقوا على صورة الانسان من التخاصم والتنازع مع أصهارهم واختانهم ما لا يرى نظيره ولا نسمع بمثله في أهل الاضغان الموروثة والاحقاد المتسلسلة، يرى أحدهم نعمة الآخر قذى في عينه وحر جاني صدره، ويهد شرفه اذا ارتفع خافضاً لتقدرة، فهو أنسكى حاسديه، وأنسكاً جارحيه، وأول المترهبين للوثبة عليه،

لم يقف تأثير اعتلال الفطرة في نفوس هؤلاء عند تنكيث المقتول، وتشتيت الملموم ونقطيع الموصول، بل أوغل في النفس الى مواضع الشعور بالحاجة الى الاعتصام، والاحساس برزايا الانقسام، فتخدرت الاعصاب، وانطامت البصائر والالاب، وانكس الطبع، وانكس الوضع، فصارت أسباب المودة والالتئام، عيلاً للتباغض والانقسام، وانقلبت معارج الشرف والرفعة، مدارج للتسفل والضعفة، وأمسى ما يكتسب لاجله يكتسب به، وما يتعزز به يعتز عليه، ولا يعتمد بشيء من هذا خروجاً عن سنن الفطرة، ولا اعتداءً لحدود الشريعة، وإنما يحسب من أمور الحزم، وطرق القيام بالمصالح،

لوأحب الأزواج أنفسهم حباً صادقاً وسكن بعضهم الى بعض ذلك السكون الطبيعي لوادّ كل منهما الآخر ووادّ لأجله أهله وعشيرته بلا تكلف ولا تعمل وأحس بأن قوتهم قوته وشرفهم مزيد في شرفه وكثرة ما لهم زيادة في نعم الله تعالى عليه لو عرف الأزواج معنى الحياة الزوجية وقيمتها وانفق ان كان كل منهما على غير ما يجب الآخر ويهوى فلم تسكن اليه نفسه ذلك السكون المطلوب لتودّد كل منهما للآخر تودّداً لعله يصيب بالتكلف والصنعة بمض ما فاته بالسجية والفطرة فان التودّد مودة متكلفة أو صورة للود الحقيقي فله جميع فوائد المودة الصورية وإنما ينقصه روحها وهو ما فيها أريحية النفس وأنسها بالفضيلة ولذتها واغباطها بها وقد ينتهي التودّد بشيء من هذا ومن فاته كمال المنفعة بشيء فليس من الرأي ولا الكياسة أن يفوته كل جزء من أجزائه وكل أثر من آثاره وهو قادر على ادراكه فان بلغ النور في قلبي الزوجين مبلغاً يمز معه التودّد ويتعذر التجميل فالواجب أن يفرقا بالمعروف والاحسان كما اجتماعاً بهذا القصد لأنهما تحققتا حينئذ أنهما لا

يقين حدود الله تعالى « وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كِلَاً مِنْ سَعْنَةٍ »
 من المودة أن يحب كل من الزوجين من يحب الآخر من أهله وعشيرته
 وأصدقائه فيسر لسرورهم ويستاء لاستيائهم ويتمنى لهم الخير والنعمة ويقوم بأداء
 حقوقهم بما جرى به العرف بين أمثالهم في ذلك والتودد هو عبارة عن هذا
 الأمر الأخير الذي هو عمل اختياري دون ما قبله لأنه من عمل القلب وهو
 شعور اضطراري يملك النفوس المستعدة له إذا هي آنت من هو أهله

النفوس المستعدة للود الصحيح والحب الخالص هي النفوس الزكية التي
 آوى حسن التربية منها إلى سلامة الفطرة والنفوس المسنأهلة لذلك هي النفوس
 المستعدة له فالحبة والمودة من ثمرات المشاكلة في السجايا والصفات النفسية الفاضلة
 وأما المشاكلة في الصفات الرديئة والسجايا الخسيسة فهي لا تثمر حباً خالصاً
 ووداداً صادقاً ولكنها تثمر تودداً يقصد به كل من المشاككين الاستفادة من
 الآخر والتعاون معه على المقصد الذي وجههما إليه فإذا أحسن بالاستغناء
 عنه أو ظهر بمن يقوم مقامه فيما تواد الأجله ويكون الربح منه أكثر أو الكفاة
 له أقل فلا يلبث أن يتبدله به جنلاً مسروراً . فأصحاب الأخلاق الفاسدة
 محرومون من ملكة المودة الصحيحة وهم في توددهم تجار مما كسبون حتى إن
 فساد الفطرة يبلغ منهم أن يتجروا بعقد الزوجية ويمتدوا أرواحهم من سلع التجارة
 كما قدمنا في مبحث اختيار الأزواج

من التودد ما هو رذيلة وهو تودد الشطار العيارين الذي كشفنا عن حقيقة
 أمرهم آنفاً ومنه ما هو فضيلة وهو ما يقصد به أداء الحقوق المعروفة للخطاء والعشراء
 وتكليف القيام بآثار المودة كراهة الحرمان من خيرها الظاهر والباطن معاً ورجاء
 أن يصير التودد وداً والتعجب جداً فقد علم بالتجربة أن تكرار العمل بأثر خلق
 من الأخلاق تكلفاً قد ينتهي بأن يصير ملكة كما ورد في الحديث «والحلم بالحلم»
 وقالت عليّة بنت المهدي

تعجب فإن الحب داعية الحب وكمن بعيد الدار مستوجب القرب
 وهذا النوع من التودد وهو الذي نأمر به من تزوجا فلم يجدا في أنفسهما سكناً

يبحث كلا منهما على مودة الآخر ظاهراً وباطناً وهو ضرب من ضرب التربية القويمة
 التربية في الكبر بعيدة المنال لا يقصد اليها الا أهل العلم ، ولا يصل منهم
 الا أولو العزم ، لأن الجاهل بعلم النفس وأخلاقها ، والشريعة وآدابها ، يقوده شعوره
 على غير هدى ، حتى يهوي به في مهاوي الردى ، فان كان زكي الطبع ، سليم
 القلب ، صبر على تجمّع النقص ، وتحمل المفض ، من معاشرة زوج لا يأنس
 به ، وقرين لا تسكن نفسه اليه ، حتى يقتله الصبر ، أو يخرج به الى الفساد والنكر ،
 وان كان شرساً شكساً كانت حياته مع الزوج الآخر في تشاكس وتعامس ،
 وتنافس وتنافر ، وأما العالم فاذا ابتلى بزواج لا تسكن اليه النفس ولا يخلص له
 الود ، فكان العدو الذي مامن صداقته بد ، فانه يتكلف اظهار صداقته ، واخفاء
 مقتبه وكرهته ، ليسلم من سوء المباشرة ، ويستظهر على آفات المنافرة ، واذا
 كان واسع العلم بتربية النفوس ، وأثر المعاملة في قلب القلوب ، صادق الإرادة
 في تربية نفسه ، قوي العزيمة في تأديب وجدانه وحسه ، فانه يطمع في أن يكون
 التودد ودا ، والتطبيع طبعاً ، ويعطى ما يطمع ، وينال ما يريد ، ومصداق هذا
 واضح في أهل العلم ، ومصداق ما قبله ظاهر في أهل الجهل ،

لك أن تقول انا رأينا من المعلمين والمتعلمات في هذه البلاد أزواجاً كان
 يرجى أن يكونوا حجة للعلم على الجهل بالعيشة الراضية ، وقصر كل من الزوجين
 طرفه على الآخر وقناعته بالاختصاص به كمال سكون نفسه اليه واخلاصه في
 مودته ومحبه ، والتودد اليه ومجاملته ، فبدا للناس منهم مالم يكونوا يحتسبون فلم تكذب
 تنتهي أيام أعراسهم وليالي أفراحهم الا وقد نجمت بينهم قرون الفتنة ووقع عليهم
 طائر الشقاق ، وصاح بهم غراب الافتراق ، وباليته كان شقاقاً بكتمان ،
 ونسراً بإحسان ، وانما هدام العلم الى أن يكيد أحدهم للآخر في المحاكم الشرعية ،
 ومنهم من قذف بهم الخصم الى المحاكم الاهلية ،

ولي أن أجيب بأنك قد نسيت أنني أعني بالعلم علم النفس وأخلاقها ، وعلم
 الشريعة وآدابها ، ومن تحدث عنهم لا يعرفون من ذلك شيئاً الا قليلاً من
 لألفاظ المحفوظة ، والكلمات المتداولة ، التي يملؤها الخيال ويلو كها اللسان ، وليس

لهافي النفس منشأ يعرف ، ولا في الاعمال أثر يوصف ، كما هو شأن الأمة في إبان موتها توجد عندها صور من العلوم لا تطلب بها غايتها ، وبقايا من الرسوم لا تجني منها فائدها ، سكون الزوج الى الزوج سبب من أسباب سعادة الزوجين وهناء ميسرتهمما خاص بهما لا يشاركهما فيه أحد من الأقربين والمحبين وأما المودة بينهما فهي من أسباب سعادة عشيرتهما أيضاً لأنها متعددة فهي مبعث التناصر والتوازر والتعاقد والتساند وبهذا تكون سبباً من أسباب سعادة الأمة المؤلفة من المشائر المؤلفة من الأزواج فهذا التأليف هو الذي يتكون منه مزاج الأمة فما يكون عليه من اعتدال وكمال يكون كمالاً في بنية الأمة وقررة عين لمجموعها وما يطرأ عليه من فساد واختلال يكون مرضاً للأمة يوردها موارد الملكة

ان الانسان ليُشعر بحاجته في كماله الى الامة وبمحتاجها اليه في ذلك على قدر قوة معنى الانسانية فيه فأدنى أفراد الانسان حظاً من الانسانية لا يشعر بحاجته الى أحد ولا بحاجة أحد اليه الا من تقوم بهم شؤون حياته الشخصية فهو ينظر الى زوجه في البيت بالعين التي ينظر بها الى شريكه في السوق أو معاملته في الحقل وهي عين المبادلة في المنفعة وطلب الربح فاذا قدر على استبدال زوج مكان زوج يكون به حظه من التمتع أو فر ، أو مكافاته له بالنفقة وغيرها أقل ، فهو يقدم على ذلك فرحاً راضياً كما يستبدل عاملاً بعامل وشريكاً بشريك وأجيراً بأجير اذا رأى ان الجديد أنفع له من القديم . فمثل هذا لا يمتد وجوده الى ما وراء محيط جسده فلا يتحقق فيه معنى الزوجية الذي هو عبارة عن حقيقة مؤلفة من فردين يعيشان بروح واحدة واذا لم يصل في سعة الوجود الى أن يكون زوجاً فلا شك أنه لا يصل الى أن يكون عضواً من عشيرة يشعر بأن له بها حياة أعلى من حياته الفردية ووجودا أوسع من وجوده الشخصي واذا صغر عن هذا فإنه يكون أصغر وأحق من أن يشعر بمعنى الوجود القومي والحياة المليية التي ترفع صاحبها الى الثمور بأن كل عمل من أعماله يجب أن يكون نافعاً لأمة عظيمة وان مجموع أعمال العاملين في هذه الأمة يلحقه شرفه اذا كان شريفاً وتصيبه خسته اذا كان خسيماً وهذا هو شأن الانسان الكامل فمودة الأهل هي أول محالي الانسانية الكاملة ولذلك

قال عليه الصلاة والسلام «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي» رواه الترمذي من حديث عائشة وصححه ورواه أيضاً مصححاً من حديث أبي هريرة بلفظ «خيركم خياركم لنسائهم» وروى أحمد والبخاري وأبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم من حديث أبي هريرة مرفوعاً «أكل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله»

ومن المودة بين الزوجين الممازحة والملاعبة ومن الرجال من يرى ان مفاكحة المرأة ومداعبتها مما يذهب بهاتها اياه واحتشامها له وينسى ان ترك ذلك يذهب بأنسها به وسكونها اليه وحبها اياه وان الحب لينفي عن المهابة والاحتشام ان صح ان الممازحة والملاعبة والمفاكحة والمداعبة لا تتفق معهما وما ذلك بصحيح فان أعظم الرجال قدراً من الانبياء والحكماء والملوك المهديين كانوا يرضون نساءهم في البيوت ولا يتخونون ذلك من مهابتهم واجلالهم شيئاً كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يمازح نساءه ويداعبن وقال لجابر رضي الله عنه حين استأذنه في تكاح الثيب «هلا بكراً تلاعبها وتلاعبك» والحديث في الصحيحين وكذلك كان يفعل (ص) حتى روي انه كان يسابق عائشة في العدو (الجري الشديد) سابقها فسبقته ثم سابقها فسبقها فقال «هذه بتلك» والحديث عند أبي داود والنسائي وابن ماجه وسنده صحيح . ويؤثر عن عمرانه كان يقول «كل امرئ في بيته صبي» وفي الاحياء : وقال عمر رضي الله عنه مع خشونته «ينبغي للرجل ان يكون في أهله مثل الصبي فاذا التمسوا ما عنده وجد رجلاً» : وللدعابة في البيت حد من تجاوزه ذهبت حشمته ، ومن قصر فيه ثقلت عشرته ، واستئصال المرأة للرجل مدرجة البلاء ، ومدعاة الشقاء ،

ومن المودة بين الزوجين الاعتدال في الغيرة ، بحيث تتحامي فيها الظنة والريبة ، فينبغي للرجل ان يؤذن امرأته بأوقاته خارج البيت أين يصر فيها فان ذلك يعلي مكانه من قلبها ، ويمكن الثقة به من نفسها ، ومحول بينها وبين وسوسة الشيطان، فلا تهمة باتخاذ الأخدان ، ويكون أعون له على إلزامها القرار في البيت وتحري رضاه في الخروج عند الحاجة اليه . وان كثيراً من الرجال ليشاقون النساء

بالمشادة في الخروج حتى ينتفوا بين الربة فيوقعوهن فيها ومنهم الذين يسلسون
لهن أو يلقون حبالهن على غواربهن فيسرحن ويمرحن ويتبرجن تبرج الجاهلية
الاولى حتى يكون البيت في نظرهن كالسجن وان ملل المرأة من البيت وكراهتها
له كملل التاجر من محل تجارته والقاضي من محكمته والأمر من امارته، وكراهة كل
عامل من عمله سبب للضياع ومعل للخراب

ومن المودة بين الزوجين أن لا تخرج المرأة من دارها الا باذن الرجل ورضاه
وأن لا تكلفه من النفقة والزينة فوق ما يليق بحاله في الثروة وقد مضت التجارب
بأن العهد الى النساء بالنفقة يمشن على الاقتصاد وينهين بالتوفير. وارجع في
سائر ما يطالب من المرأة لزوجها وولدها في المقالات السابقة فالنهوض بهامع النبطة
والسرور هو أثر المودة المطلوبة

لو لم تكن المودة بين عشيرتي الزوجين مما يقصد بالزواج قصداً مستقلاً لكانت
مما يقصد بالتبع لتوثيق الرابطة الزوجية بين الزوجين فان احترام كل منهما لقرابة
الآخر مزيد في احترامه له ولعل الذين يختارون الأزواج لمكان البيوت والعشائر
أكثر من الذين يختارون لجرد الاستحسان الذاتي ولا تكاد تجد في العناصر
الكريمة من لا يبالي بالمنبت وإنما أولئك تحوت الناس وعبيد الشهوات

ان المشاكلة بين الزوجين في السجايا والعادات كافية مع سكون الزوجية
لتحقيق المودة بينهما ولكن مكان عشيرتهما قد يفسد مودة بينهما اذا كانت غير
مرضية لهم وقد يشفع لما ينقصهما من سكون النفس ومودة القلب لاول عاطفة الاحترام
القومي محل عاطفة المشاكلة في بعض الطباع فان لم يأت احترام العشيرة بالمودة
فهو لا يقصر عن الاتيان بالتودد وحسن المعاشرة

سل قضاة المحاكم الشرعية ووكلاء الدعاوي فيها مخبروك عن أرباب التخاصم
من الأزواج ان أكثرهم من الشذاذ الذين ليس لهم عشائر معروفة أو من البيوت
التي أفسدها الترف والتربية السوءى حتى كان أهل الزوجين هم الذين يحلون
ميثاق الزوجية بينهما ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل وهم يحسبون أنهم يحسنون
صنعاً بمضارة الرجل بامرأته والمرأة بملها باسم المحافظة على الحقوق ورعاية الشرف

وما الشرف الا في الوفاق الوثام ، والوداد والالتزام ،
 يقع مثل هذا مع فساد الفطرة من الذين عزموا عقدة المصاهرة على رغبة
 وتخيير فبال أولئك الذين يمتون الي هذا العقد بوسائل الرهبة أو الحيلة أو يهجمون
 على البيوت فيأتونها من ظهورها لا من أبوابها ، ويمزقون ستارها ويمتكون حجباها ،
 وينزعون الخرائد من أكنافها ، والفرائد من أصدافها ، ويفرقون بين الاولاد
 والوالدين ، ويوقعون العداوة والبغضاء بين الاقربين ، ماذا يكون أثرهم في البيوت
 التي تتكون منها الأمة وفي الأمة التي تتكون من البيوت ؟ لا يغيب عن عاقل ان
 شرهم مستطير ، وان ما يملونه فتنة في الأرض وفساد كبير . (الكلام بقية)

فَتَاوَى الْمَبَانِي

فتعنا هذا الباب لا جابة أسئلة المشتركة خاصة ، اذ لا يسمع الناس عامة ، ونشترط على السائل ان يبين لنا
 اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيقته) وله بهد ذلك ان يرمز الى اسمه بالحروف ان شاء ، واننا نذكر الاسئلة
 بالتدريج غالباً ورمما قد متأخر السبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه وربما أجبنا غير مشترك لمثل هذا ، ولن
 نقضي على سؤاله شهران او ثلاثة ان يذكره مرة واحدة فان لم يذكره كان لنا عذر صحيح لا يغفاله

— تزوج الشريفة بغير شريف وفضل أهل البيت —

(س ٢٩) مستفيدني (سنغافوره) سيدي هل هذه الفتوى (المذكورة أدناه)
 صحيحة ويجوز العمل بما فيها أم الاصح خلافها أفيدونا لازم خير خلف لخير سلف
 عن جوهر الاسلامية وأرجو من حضرتكم الكلام عنها في المنار وهي :

ما قولكم في من يستحل تزويج الشرائف بمن ليسوا بأشراف بل لو كان بعضهم
 يزعم أنه هاشمي أو مطلبى أو من بقية قريش فهل يصح تزويجهم بالشرائف أولاً
 — الجواب والله أعلم بالصواب —

اعلم أن مراعاة الكفاءة في النكاح واجبة وهي في النسب على أربعة درجات (كذا)
 الاولى العرب لا يكافئهم غيرهم من المعجم الثانية قريش لا يكافئهم غيرهم من بقية
 العرب الثالثة بنو هاشم وبنو المطلب لا يكافئهم غيرهم من بقية قريش الرابعة
 اولاد فاطمة الزهراء بنو الحسن والحسين رضي الله عنهم لا يكافئهم غيرهم من بني